يوم في خزانة

عيسى اسكندر المعلوف

بقلم الدكتور بشر فارس

هذا عالم آخر من علماء لبنان [1] خرّج التلامذة ودرّب الطلبة الى جانب التأليف والتصنيف زهاء خمسين سنة في همة تجهل القعود وبدراية واسعة . وهو أبو شفيق المعلوف صاحب ديوان « عبقر » ، أبو المرحوم فوزي صاحب « شاعر في طيارة » هذا القصيد الفريد الباقي على الزمن.

زرته في زحلة في طريقي الى دمشق أول الخريف الماضي ، ولبثت بداره يوماً أتصفح مخطوطات فيها النادر والنفيس، بعضها من قلمه والآخر من اقلام من تقدم . ولا يسعني الاّ أن أنوّه بما وقفني ، ولعلّ في ذلك متعة او فائدة لقارىء « المقتطف » . على ان للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف تواليف مطبوعة ، لا أتمهل عندها ولا أذكرها الاّ كتاباً هو « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف »[2] . وقصر هذا الكتاب في عرضه لتاريخ حَصْرون وذكر أسرها ولا سيما الغساسنة ، وفي اشاراته الى تاريخ لبنان وفلسطين مع تدوين طائفة كبيرة من الحوادث والوقائع بجنب الشؤون العمرانية والفوائد الجغرافية ثم العادات والاخلاق

واما المخطوطات فغير قليلة . واليك التي لفتت لموضوعاتها : —

(١) — في اللغة (القصيحة والعامية)

١ — « فهرس شرح الأمثال العامية العربية » وهو يشمل أربعة عشر الف مثل تجري على ألسنة الناس في لبنان وسورية وفلسطين وما يجاورها . وميزة الكتاب ان المؤلف يردف

---

(١) انظر مقالاً في العدد السابق من المقتطف (مايو ١٩٤٢) : « التفيه الى كتاب بريد جميع » للكتبة فيليب فوزي المعلوف . وهو كتاب لا يزال مخطوطاً كما أخبرناك : وفي مستدركه هنا على هذا المقال : ص ٤٣٢ هامش ١ س ١ ، اقرأ : الزاهد بدلاً من الوافد — ص ٤٣٣ س ١٣ ، اقرأ : دوما ، بدلاً من روما — ص ٤٣٥ س ١٤ ، اقرأ : فتكلم على ، بدلاً من فتكلم عن — ص ٤٣٤ هامش ٢ س ٢ من تحت ، رد بعد ص ٧٦ : كذلك طبعة شيخو بيروت ١٩٢٣ ص ٥١ س ٢٢ — ص ٤٣٦ س ١٨ ، اقرأ : الكتاب المعهود ، بدلاً من الكتاب — س ١٩ : اقرأ : واكرني له ، بدلاً من اكرني — هامش ١ السطر الاخير ، اقرأ : انظر ص ٢٥ — ٤٦ و ١٧٣ — ١٨٩ هامشه ، بدلاً من ص ١١٧ — ٢٦٦ .

(٢) طبع في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧—١٩٠٨

المثل العامي بما قيل في معناه في الفصحى ، نحو ذلك هذا المثل العامي : « البرطل بيحلّ شانس القاضي » . ثم يلي المثلَ قول الشاعر :

فبرطل ان أردتَ الحال يمشي لا يمشي سوى خفّ البرطل

ثم قول سليمان البستاني ناقل الالياذة ، وقد نظم معنىً للفرس :

يعثر خيارات لقاضيك رشوة تثبت في البطيخ عشر مزارع

٢ — « معجم الالفاظ العامية والدخيلة » في سورية ولبنان وفلسطين ، مع رد اللفظ الى اصله العربي او الاعجمي من جهة الاشتقاق او التعريب ، وايراد ما وضع العرب او المؤلف نفسه للفظ ان كان اعجميًّا . ولهذا المعجم مقدمة في اللغة العامية وآدابها وفنونها

(ب) — في الأدب

١ — « شحذ القريحة في المقتطفات البليغة الفصيحة » في مجلدين . الاول في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، والثاني في المعاني الشعرية من السماء حتى الأرض مع ذكر العلوم والاختراعات . وفي المجلد الاول مباحث في الشعر عند الامم العربية والغربية ، ومن الفصول: طبقات الشعراء عند العرب وتحليل اشعارهم ، شعراء الاعاجم شرقاً وغرباً ، الشاعر وآدابه ، الحس والخيال والمعاني ، الموازنة بين الشعر العربي في الشرق وفي الغرب ، في فن قرض الشعر ، اكتساب ملكة النظم ، شياطين الشعر ، اختلاف خيالات الشعراء . كل ذلك مستخرج من أقوال العرب وآرائهم وأشعارهم . ثم التقليد والتجديد ، الروية والارتجال ، الذكاء والعبقرية والنبوغ ، ثم الفنون الشعرية : التشطير والتخميس والتسديس الى التعشير ، الموشح وكيف يكتب برسوم على اشكال عدون مع امثلة مختلفة ، التاريخ الشعري الى آخرها هنالك من الاجازات والالغاز وغرائب القوافي والاشعار والاوزان ، ثم الترجمة[1] . وأما المجلد الثاني فيتضمن المعاني الشعرية مرتبة على تحدرها من السماء حتى الارض . وفيه طرائف وغرائب من الوصف

على أني وقفت في مطاوي هذا الكتاب الضخم على بعض مسائل أخشى أن تكون معروفة وأخرى أظنها مطروقة . فلعل نؤلف يطرحها عند المراجعة والتهذيب ، أو يجتزىء بالاشارة اليها

٢ — « تكملة ديوان الامام الشافعي » الذي طبع منه مختارات في القاهرة (سنة ١٣٢١هـ) .

(١) ومن ملح هذا الباب الاعجمي ما نظمه الشيخ ابراهيم الحوراني (المتوفى في بيروت سنة ١٩١٦) مترجماً معنى الشاعر الروسي بوشكين :

قال الذهب اهديه ملكي قال الفولاذ أحب الذهب
قال العنبان أحب الشعري قال الفولاذ أحب الذهب

وقد رجع المعلوف الى مخطوطات نادرة ، في مقدمتها «مناقب الامام الشافعي» للمستقلاني[1]

٣ — « مجموع الدواوين المفقودة » : هي دواوين بحث عنها الاستاذ المعلوف في مخطوطات كثيرة متفرقة في الخزانات العامة ، فجمع منها قصائد ومقطوعات لشعراء مجهولين او مهملين كأمثال :

السيد احمد البربير الدمياطي البيروتي وهو من أدباء مفتتح القرن التاسع عشر . فقد عثر له المصنف على أكثر من الفي بيت ، ومن قوله في الشيب :

خيوط الشيب قد مدّت بعودي ومدّ خيوطها قصر الحياة
أجادت غزلها أيدي الليالي لتنسجه غداً كفناً لذاتي

وملحم الشميل اللبناني ، وشقيقه امين الشميل ، والسيد عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت ، والشيخ راجي اليازجي شقيق الشيخ ناصيف ، ومحمود بك ابن خليل بك العظم الدمشقي ، والسيد علوان الدُمَرّ قاضي بيروت ، والسيد أحمد الغر مفتي بيروت ، والقس حنانيا النمّر الزوقي ، والحاج حسين بيهم البيروتي . وكل هؤلاء من أدباء القرن التاسع عشر

٤ — « ذيل شعراء النصرانية » وفيه أتم المعلوف ما كان نشره الأب شيخو

٥ — « تبديد الأوجال في فن الأزجال » وهو مجموعة من الأزجال القديمة والحديثة في سورية ولبنان ومصر والعراق وسائر البلدان العربية[2]

وقد استخرج المعلوف مواد هذه المجموعة من عدة مخطوطات محفوظة في خزانته . وأني أعلم ان المستشرق ليسرف Lecerf وصفها ورجع اليها في بحثه المستفيض في الأدب العامي العربي[3] . ومن مطالعي هذا البحث يتبين لك ان الاستاذ المعلوف من الأثبات في فن الزجل وأدبه وتاريخه

---

(١) سرد بروكلمن المستشرق العلامة في كتابه القيم « تاريخ الآداب العربية » (النكملة ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٣٠٤) « مناقب » أخرى للشافعي وتواليف عدة من أقواله واشعاره . ولعل الاستاذ المعلوف راجع هذا الفصل ، فقد يجد فيه مصادر جديدة

(٢) واليك مثلا زجلا مصرياً للسيد حسين بن أحمد الكيلاني :

يالله أعدروني بظروفي يا مسلمين هذا الذي يستحل عذابي المستهين
أعرس وما مر لي ليلة بسلام هب ويالك لقاسي القلب ظالم
قال تعشي بالعشق هن عندك شهود قلت له وهات صدوك والبرود
وخالك الشهود مع حمر الخدود هدي شهودي في خديك ظاهرين ..

(٣) J. Lecerf, "Littérature Dialectale et Renaissance arabe moderne" Bulletin d'Etudes Orientales (Damas) année 1933, tome 3 p. 121 et suivantes « نشرة الدراسات الشرقية » (دمشق)

(ج ١ — التاريخ

١ — «مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر» في مجلد كبير يبلغ الف صفحة. ترجم فيه المؤلف لعدد وافر من الأدباء الذين اهملهم غيره او زاد على ما جاء عند غيره. والمترجمون بين عرب وافرنج، وهؤلاء ممن أقام ببلاد العربية أو ساح فيها مثل الكولونل تشرتشل بك الذي توفي في ناحية «سوق الغرب» بلبنان، وهو عم المستر تشرتشل رجل الساعة في انكلترة، ومثل رتشارد وُد Wood الذي قصد الى لبنان سنة ١٨٣١ ليخرج منه ابرهيم باشا[1]

٢ — «تاريخ آل اليازجي» في مجلدين. وقد دفعه المؤلف الى مطبعة دير المخلّص بقرب مدينة صيدا

٣ — «الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية». وهو سفر شامل «لتواريخ الاسر في لبنان وسورية وفلسطين والعراق والعجم وآسية الصغرى ومصر وبلاد العرب والمغرب وما اليها وفي المهاجر. وهذه الاسر من جميع المذاهب المسيحية والاسلامية والاسرائيلية على اختلاف طوائفها ومناشئها ومواطنها وأنسابها واسمائها أصولاً وفروعاً، ثم ذكر حوادثها وتراجم سلالها الخ». وقد بلغ هذا السفر حتى ٢٤ اغسطس ١٩٤١ أربعة عشر مجلداً كبيراً

وأما مصادر الكتاب فبين المنقولة سماعاً والمتعقَّبة في بطون المخطوطات والمطبوعات مثل كتب الأنساب وما يأخذ اخذها من الشجرات والعناقيد، ومثل الحجج والسجلات أو صحائف الخراج والخرج والكنانيش والتذاكر والسفائن. فهو استخراج للمخبآت. والكتاب غير مرتب بعدُ على حروف المعجم كما هو شأن تواليف السمعاني والقلقشندي وغيرهما، بل هو في طور الجمع والتدوين وان كان صاحبهُ يعالجهُ منذ ثلاث واربعين سنة، فالابواب لا تزال منفتحة لقبول مواد جديدة أو متممة. ولكن ثمة موارد كثيرة وافية يهتدي بها المطالع الى اسماء الاسر وأسامي الاماكن وعيون الناس من أهل سياسة أو أدب أو علم

وقد اخبرني المؤلف أنه كتب الى اعقاب تلك الاسر يسألهم عما لديهم من الاخبار فاغفلوا أو أهملوا الاّ أقلهم. ولما كتب اليهم يدعوهم الى مشاركته في اخراج الكتاب ردَّ بعضهم على هذا النحو: «أرسل الينا تاريخ اسرتنا، فان كان فيه لنا فائدة اشتركنا». واما سائر الاعقاب فأبوا الاّ الصمت... هذا هو الشرق!

***

(١) وفي الانكليزية عامة موادر في البلاد، ثم ان للاول ثلاثة كتب مفيدة: الاول، The Druzes and the Maronites : والثاني Ten Years Residence in Lebanon والثالث في الامير عبد القادر الجزائري

تلك هي المخطوطات التي من قلم الاستاذ المعلوف ؛ ولعلّ أحسنها شأناً يخرج عاجلاً . ثم إن في خزانة هذا العالم الدائب في العمل مخطوطات أحب أن أشير إلى بعض ما له شأن

١ — « مجموعة رسائل » تاريخ نسخها سنة ٦٤٤ هـ ، لكبار الكتاب مثل ابن بصاقة وابن الأثير صاحب « المثل السائر » في مراسلة الملوك وبعض هذه الرسائل في الحروب الصليبية

٢ — « مجموعة من كتب الدروز » وهي نحو ١٥ كتاباً . فيها أسرار هذه الطائفة ، وأناشيدها ، وأخبار عن أعيانها ، وشؤون في معاملتها لسائر الطوائف . وطي هذه المجموعة مقالات ادبية للسيد عبدالله التنوخي الدرزي

٣ — « تاريخ نابليون الاول » لنقولا الترك اللبناني (١٧٦٣ — ١٨٢٨) . وفائدة هذا التاريخ انهُ يشتمل على كثير من المنشورات والرسائل الخاصة بحملة نابليون على مصر [1]

٤ — « تاريخ مصر » لخليل الخوري الشاعر (١٨٣٦ — ١٨٧٥) صاحب جريدة « حديقة الاخبار » البيروتية ، ألفه باشارة من سعيد باشا [2]

٥ — « جامع الفنون وسلوة المحزون » تأليف نجم الدين احمد بن حمدان بن شبيب الحراني الحنبلي المتوفي سنة ٦٩٥ هـ (؟) . فيه مباحث مختلفة ، فهو أشبه بدائرة معارف في الجغرافية وما اليها خاصة [3]

٦ — « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ . ومعلوم ان هذا الكتاب طبع في أربعة مجلدات (١٢٩١ و ١٣٠١هـ) . الآ ان ميزة نسخة

---

(١) جاء في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » لشيخو ، بيروت ١٩٢٤ ، ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ : « لنقولا الترك : تاريخ الامبراطور نابليون من سنة وفاة الملك لويس السادس عشر الى موت نابليون سنة ١٨٢١ في نحو ٤٥٠ صفحة ، كتبه بانصاف وحسن ذوق مع تعريف أسباب الحوادث وسواعدها والحكم في جيدها وسيئها . وهذا الكتاب قد طبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ بهمة المسيو ديجرنج Desgranges الذي نقله الى الفرنساوية وألحقه بعدة ملحوظات وهو يحتوي تاريخ نابليون الى آخر سنة مصر سنة ١٨٠١ ، واما النصف الثاني فلا يزال مخطوطاً » . وهذا لم يذكر شيخو خزانة المخطوط

(٢) تجد ترجمة خليل الخوري في « مشاهير الشرق » لزيدان القاهرة ١٩١١ ج ٢ ص ١٤٠ وما يليها . وما أثبته زيدان : « ولم نقف على ذلك الكتاب (يعني « تاريخ مصر ») ولا سمعنا به قبل البحث عن ترجمة هذا الشاعر »

(٣) في « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ط سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٥١٢ و ج ٢ ص ١٣٠ ذُكر هذا الكتاب بعنوانه ونسب الى اثنين اسمهما واحد : الاول كحال وشاعر مصري توفي سنة ٦٩٥ هـ ، والثاني كان في مصر سنة ٧٣٢ هـ . وفي « تكملة » هذا التاريخ Supplt ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ ، استدرك بروكلمن نفسه هذا الثاني ، ووصف الكتاب قائلاً ان فيه سرداً لعجائب مصر جمعه على نحو ما جاء في كتاب « جواهر البحور . . . » لابراهيم بن وصيف شاه . وقد أرشد بروكلمن الى الخزانات التي تحفظ هذا المخطوط ، وهي دار الكتب الوطنية بباريس والمتحف البريطاني وغيرهما . هذا وفي وسع الاستاذ المعلوف ان يراجع ما ورد في كتاب بروكلمن للتحقيق والتثبت ولا سيما انه أشار الى نسخ أخرى من هذا المخطوط في باريس فقط

المعروف أنها بخط أبي الطيب الخطيب الدمشقي تلميذ الفرادي ، وان الفرادي نفسه وقف عليها وضبطها ، ففيها فوائد وتصحيحات لا غنى عنها لمراجعة نوعها . وردت في النسخة المطبوعة

٧ — « ديوان » لعبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ في « المراسلات » . وهو غير «ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » المطبوع[1] . وفي هذه « المراسلات » فوائد كثيرة عن دمشق وغيرها من المدن الاسلامية مع ذكر اسماء العلماء والصناع وعرض شيء منهم

ثم ان هنالك مخطوطات يحسن التنويه بها لما يزينها من التراويق

١ — « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » للشهدي . فيه صور لطيفة للآلات والعازفين ، بينها صورة جارية هارون الرشيد والكمان في يدها[2]

٢ — « كتب في الفلك » لقاضي زاده الرومي من القرن التاسع الهجري

٣ — « كتاب حل الاثقال » لهيرون الفيلسوف اليوناني (الاسكندري) ، نقله قسطا ابن لوقا البعلي[3] والمخطوط من القرن السادس عشر الميلادي

٤ — « رسالة في الشطرنج والقتال وصف العساكر بديقة اقناصيب الشطرنجية » لأحمد ابن حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٩ هـ[4]

٥ — « حياة الحيوان » للدميري المصري . وهو مطبوع ، لا مخطوط ، طبع في فارس سنة ١٢٨٥ ، مع صور جميع الحيوانات المذكورة في الكتاب (طبعة نادرة)

***

هذا بعض ما انتهى اليَّ في ذلك اليوم الذي قضيته متصفحاً ، فاحصاً ، من حولي طرائف وضنائن ، بين يدي شيخ جليل حبس حياته على طلب العلم ونفع الناس به . فما أظنني أضعت يومي ، ومن قبل قال الحسن البصري : « الدنيا كلها غفلة الا مجالس العلماء »

---

(١) انظر ترجمته في « معجم المطبوعات العربية ... » لسركيس ص ١٨٣٣

(٢) هذا المخطوط في دار الكتب المصرية أيضاً ، ولكن المؤلف (وهو الشهدي كما في مخطوط المطوف) غير مذكور ، ورقم المخطوط عندنا : ١ — منوع جيلة ، ونجد وصفه في « نشرة بأسماء كتب الموسيقى والغناء والمؤلفين المحفوظة بدار الكتب » طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ ص ٢٣ . وهذا المخطوط مأخوذ بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية في مكتبة طوب قبو سراي بالآستانة . هذا وأردت أن أنظر في هذه النسخة المحفوظة في دار الكتب عندما لاحظ الفارق ، هذا إذا التراويق التي تزين ديباجة المخطوف . ولكن هذه النسخة من المخطوطات التي جعلتها الدار في الخزائن حذراً من غارات هذه الحرب . على أن « النشرة » المذكورة توفي بالغرض ، تصرح بأن في النسخة تراويق

(٣) هذا المخطوط في خزانة تيمور والقاهرة أيضاً واسمه « شيل أشكال » . وقد طبع مع بحث وترجمة في المجلات الفرنسية والايطالية (راجع « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ، طبعة سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٣٠٤)

(٤) لم أجد ذكراً لهذا الكتاب في « تاريخ ... » بروكلمن ولا في « تكملته » ، على أني لا أجزم ، وذلك أن هذا التاريخ الجامع لا يزال مفتقراً الى مصادر وافية لأسماء المؤلفين وأسماء الكتب